مدن ومعالم (١)

الطائف

ودور قبيلة ثقيف من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية

الدكتور
عبد الجبار ناجي العبيدي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
شوال ١٤٠٢هـ ـ اغسطس ١٩٨٢م
الطبعة الثانية
جمادى الأول ١٤٠٣هـ ـ فبراير ١٩٨٣م

منشورات
دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع
الرياض ص.ب: ١٥٩٠
ت: ٤٧٧٢٦٩

الغلاف من إعداد الفنان : محسن منصور

كلمة الناشر

بحمد الله وتوفيقه، تبدأ (دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع) إصدار العدد الأول من سلسلة جديدة تزمع موالاة اصدارها، إن شاء الله تعالى، من سلاسلها التى تقدمها لجمهورها فى المملكة العربية السعودية، وفى العالمين العربي والإسلامي.

هذه السلسلة الجديدة، هي سلسلة (مدن ومعالم) تهدف الدار من وراء إصدارها، أن تقدم لقرائها، تاريخا وتعريفاً، للبلدان، والمعالم، داخل المملكة العربية السعودية، لتشكل هذه السلسلة إن شاء الله، نواة دائرة معارف، تخدم هذه المنطقة من العالم.

ولا تلتزم الدار فى اصداراتها لهذه السلسلة ترتيبا معيناً للمدن والمعالم، من حيث القداسة أو الأهمية أو القدم أو الضخامة، ولكنها تقدم ما يتهيأ لها من مادة هذه الاصدارات.

وان من نعم الله عز وجل، على هذه المملكة الناهضة، أنها ولله الحمد تزدهر، وتكبر مدنها وتكثر، وتنعش قراها ومعالمها، ذلك فى ظل قائدها صاحب الجلالة الملك (فهد بن عبد العزيز) ادام الله وجوده، و برعاية ولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز، حي الله مجده وحفظه.

مدير دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع

عبد العزيز أحمد الرفاعى

الرياض فى ١٤٠٢/٩/١ هـ

مقدمة

جمّة هي الأسباب التى دفعتنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع «مدينة الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية»، ولعلّ أهمها وأكثرها الحاحا هو الرغبة فى التعرّف إلى تاريخ هذه المدينة باعتبارها ثالثة مدن الحجاز الكبرى المهمة بعد مكّة والمدينة. وكذلك محاولة ابراز الدور التاريخي الفعّال الذى لعبه أهلها على مسرح الحياة العامة آنذاك فى النواحي السياسيّة والدينيّة والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية قبل الإسلام، وحتى قيام الدولة الأموية.

غير أن الذى شجّعنى أكثر. بل والذى زاد من اصرارى على التعلّق بالموضوع ومحاولة نبش ما خفي من آثاره فى ثنايا المخطوطات وبطون المصادر القديمة، هو ان دراسة الطائف وعلاقة سكانها بمن جاورهم من القبائل العربية الأخرى والمدن والمناطق المحيطة ومدى أثرهم فى الحياة العامة فى تلك الميادين المتعددة، كل هذه الأمور لم تحظ من جانب الباحثين والدارسين لتاريخ شبه الجزيرة العربية عموماً واقليم الحجاز خصوصاً بالعناية والاهتمام ذاتهما اللذين حظي بهما تاريخ كل من مكة والمدينة.

ومن هنا تبدو دراسة هذا الموضوع أساسية من وجهة نظر التاريخ الإسلامي، وخصوصاً إذا تذكرنا قلة المتخصصين والباحثين فيه، وأن دروب هذا البحث لم تطأها سوى أقدام قلّة الدارسين، أن لم تكن غير موطوءة بعد بأقدام حقيقية على الاطلاق فى بعض نواحيها المهمة.

فى دراستى هذه ركزّت على قبيلة ثقيف العربية التى شكلت محور هذا البحث وقد تناولت دورها فى العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية، باعتبار أن هذه القبيلة تمثّل واحدا من تلك التجمعات القبلية الكبيرة التى اشتد التناقض والصراع فيما بينها. كما أنى بينت أهمية مدينة هذه القبيلة كمركز من

مراكز الاستيطان نتيجة عوامل كثيرة ومتعددة، منها جودة مناخها ووفرة مياهها وخصوبة أرضها.. ممّا ساعد على قيام ملكيات زراعية واسعة فيها، اضافة إلى أهمية موقعها وإلى وجود ثروتي الصناعة والتجارة فيها. كل هذه جعلت المدينة مركزاً مهمّا فى نواحيها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والحربية.

إن التاريخ القديم للطائف يكتنفه الغموض عموماً..ويكاد يكون هذا الغموض عميقا وشاملا فى بعض نواحيه. والاستدلال عليه يفرض على الباحث التعامل مع الروايات المتناثرة والمتناقضة فى أغلب الأحيان..، بعد تمحيصها طبعا وتحكيم المنطق العلمي فيها، مما يتطلب أقصى غايات الجهد. فنحن لا نملك وثائق تاريخية كافية أو دقيقة لتاريخ الطائف، مما يجعل الخوض فيه دائما عسيرا ومضنيا. ومحاولة السعي وراء الإطلالة العلمية على تاريخ هذه المدينة وسكانها تصطدم دائما بعدم توفر المصادر التاريخية التى تروى ظمأ الباحث..، وهي أن توفرت فليست أكثر من روايات الاخباريين التى اقتصرت على العصر الجاهلي الأخير والتى يشوبها الغموض والابهام، على الرغم من تعرّضها للطائف ونفوذها الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والحربي، وعلاقتها بالمدن المجاورة وباليمن والعالم الخارجي وقتذاك.

ومن هنا تبرز أهمية الدراسة الهادفة المركزة التى تستطيع كشف اللثام عن معلومات خبيئة قد تسهم فى إيضاح الرؤية العلمية وتنير متاهات طويلة فى تاريخ هذه المدينة وتاريخ سكانها.

وقبل اقدامى على الكتابة فى هذا الموضوع، قمت بدراسة استطلاعية لتشخيص أبعاده ومجالاته، وقد بذلت ما وسعنى من جهد مثابر فى البحث والتنقيب بين ثنايا المصادر التاريخية القديمة المختلفة وبعض المخطوطات التى فى متناول يدى والتى أمكننى الحصول عليها، لكي أقدم هذا البحث المتواضع الذى آمل أن يكون اسهامة نافعة تساعد على إبراز تاريخ وأهمية هذه المدينة وحرص أهلها من الثقفيين، بصورة خاصة، على أن يكونوا ندّا قويّا ومساويا لقريش صاحبة اليد العليا فى التجارة قبل الإسلام. كما توضح أيضا كيف أن الثقفيين بعد اسلامهم

ودخول مدينتهم فى حوزة الدولة الإسلامية، صاروا من أشد القبائل العربية حرصا على استمرار وانتشار هذا الدين الحنيف والذود عنه فى شتى المحن التى تعرّض لها ولا سيما فى محنة الردة.

لقد حاولت جهدى أن أضع هذه الرسالة فى شكل بحث علمي شامل للمدينة وسكانها..، وهي قد اشتملت على ثلاثة أبواب رئيسية تضم عشرة فصول وتشكل وحدة عضوية متكاملة.

يتناول الباب الأول مدينة الطائف فى العصر الجاهلي..، ويقع فى أربعة فصول، يتحدّث الفصل الأول منها عن سكان الطائف وعلاقاتهم الاجتماعية. ويناقش الفصل الثاني الأحوال الاقتصادية فى الطائف وعلاقاتهم الاقتصادية بالمدن الأخرى، فى حين يتناول الفصل الثالث علاقة ثقيف السياسية بالمدن والقبائل المختلفة، أما الفصل الرابع فيتعرّض لعلاقة ثقيف الخارجية مع الدول القائمة على أطراف شبه الجزيرة العربية.

أما الباب الثاني فيتناول الطائف فى عهد الرسول، ويقع فى أربعة فصول يناقش الفصل الأول منها ديانة ثقيف وارتباطها بالنشاط الديني العام للقبائل العربية فى موسم الحج. أما الفصل الثاني فانه يلقى ضوءا على نظرة ثقيف للدعوة الإسلامية ومحاولة النبي صلى الله عليه وسلم ضمّها إلى جانبه كمدينة منافسة لمكّة قبل الهجرة الكبرى. والفصل الثالث يتناول موقف أهل الطائف من الصراع القائم بين مكّة والمدينة بعد الهجرة. ثم يأتى الفصل الرابع ليبيّن دخول ثقيف فى الإسلام.

أما الباب الثالث، فيتناول الطائف فى عصر الراشدين ويقع فى فصلين أساسيّين. يناقش الفصل الأول منها دور أهل الطائف فى عهد الخلفاء الراشدين ومشاركتهم فى حركتي الردّة والفتوح الكبرى. أما الفصل الثاني فيبيّن موقف ثقيف من الصراع على السلطة حتى قيام الدولة الأمويّة وبروز العصبيّة الثقفية كبديل للعصبيّة القرشية.

بعد هذا العرض السريع الموجز للخطوط العريضة للبحث، لا يفوتنى أن